تعلمت من يوسف عليه السلام

تلخيص المحاضرة الثانية

مخطط شيطاني

تتجلى في قصة يوسف عليه السلام حكمة الله في اختيار المشاهد التي يرويها لنا فعلى الرغم من كثرة الأحداث التي سبقت إلقاء يوسف في الجب، إلا أن الله اختار مشهدًا واحدًا فقط ليسلط الضوء عليه، لأنه المفتاح لفهم القصة بأكملها. هذا المشهد يكشف سر ثبات يوسف في بيت العزيز، وصبره في السجن، وتواضعه في الملك. كل ذلك كان نتيجة تربية يعقوب عليه السلام، الذي استثمر السنوات القليلة التي قضاها يوسف معه في غرس القيم العظيمة في قلبه.

من هذه القصة تبرز فائدتان مهمتان:

للمربي: لا تؤجل التربية، فالسنوات الأولى تصنع الفارق. يعقوب عليه السلام لم ينتظر حتى يكبر يوسف ليغرس فيه المعاني الكبرى، بل بدأ منذ صغره، مما جعله قادرًا على مواجهة التحديات بثبات وإيمان.

للمتربي: لا تضيع الفرص التربوية المتاحة لك، فقد لا تتكرر. كثيرون يتكاسلون عن التعلم والتزكية بحجة أن الفرصة موجودة دائمًا، لكن قد تأتي لحظة يجدون فيها كل الأبواب قد أُغلقت.

التربية الصالحة تصنع أبطالًا، والمحاضن التربوية، سواء كانت أسرة، مسجدًا، أو شيخًا، هي نعمة يجب اغتنامها قبل أن تزول.

المحضن التربوي وأهميته في بناء الإنسان

المحضن التربوي هو البيئة التي يحتضن فيها الإنسان تربويًا، سواء كان ذلك من خلال الأسرة، أو شيخ مرشد، أو دار علم، أو حتى صديق ناصح. هذه البيئة تشكل الشخصية، وتغرس القيم، وتمد الإنسان بالزاد الذي يحتاجه في رحلته الحياتية. ومن يحظى بمحضن تربوي، خاصة في بداية التزامه، عليه أن يغتنم هذه الفرصة قبل أن تزول.

في واقعنا المعاصر، تغيرت الظروف، وأُغلقت مساجد، وتعطلت حلقات العلم، ولم يعد المشايخ متاحين كما كانوا. كثيرون يتحسرون اليوم على فرص ضاعت، ويسألون: "أين الدروس التي كنا نؤجل حضورها؟"، لكن السؤال الأهم: "أين كنا عندما كانت الفرص متاحة؟".

الآن، أتيحت لنا فرصة التعلم عبر الإنترنت، من خلال الدورات والدروس المباشرة، لكن البعض لا يزال يتكاسل ويؤجل. والدرس المستفاد من قصة يوسف عليه السلام أنه لو تهاون في الاستفادة من والده يعقوب، وأجّل التعلم بحجة أنه صغير، لما كان قادرًا على الثبات أمام ابتلاءات الحياة.

الجامعة: الفرصة الذهبية للتعلم

مرحلة الجامعة هي فترة ذهبية لمن أراد أن يطلب العلم، يحفظ القرآن، أو يشارك في الدعوة. فهي توفر وقتًا منظمًا وفراغًا نسبيًا قد لا يتكرر بعد التخرج، حين تتزاحم المسؤوليات من عمل وزواج والتزامات أخرى. من استثمر وقته في هذه المرحلة خرج منها راسخًا، مهما تغيرت به الظروف. ومن أهملها دخل في طاحونة الحياة بلا أساس متين، ووجد نفسه مع الأيام بلا زاد إيماني أو علمي.

يوسف عليه السلام يبعث برسالة لكل شاب: "اغتنم وقتك، فلا تدري متى ستحتاج ما ادخرته". ويعقوب عليه السلام يوجه نداءً لكل مربٍّ: "لا تؤجل غرس القيم فيمن حولك، فقد لا يكون الغد في متناولك".

إن العمل الدعوي، كأي مشروع عظيم، يحتاج إلى سرعة في الإنجاز واستثمار كل لحظة متاحة. فالعمر قصير، والفرص لا تبقى إلى الأبد، ومن يملك اليوم القدرة على التعلم أو التعليم، عليه أن يغتنمها قبل أن يُحال بينه وبينها.

العبر والدلالات في قصة يوسف عليه السلام

تبدأ سورة يوسف ببيان أن في قصته وقصة إخوته {ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ}، أي عبرًا عظيمة لمن يبحث عن الهداية ويطلب المعرفة بصدق. كما تختتم السورة بالتأكيد على أن في هذه القصة {عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ}، مما يعكس عمق الحكم والدلالات التي تتضمنها.

أهم الدلالات والعبر في السورة:

1) إثبات وحدانية الله: تتجلى في أحداث القصة، وفي دعوة يوسف عليه السلام في السجن، حيث أكد أن الحكم لله وحده، وهو الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

2) كمال صفات الله: فالسورة تكشف عن حكمة الله البالغة، وفضله الواسع، وعلمه المحيط، وقوته التي تفوق كيد البشر، وغلبته التي تتحقق رغم تدابير الظالمين.

3) صدق الرسل وصفاتهم الكريمة: إذ نجد في يوسف ويعقوب عليهما السلام نماذج للصبر، والعفو، والتوكل على الله، وقوة الرجاء فيه، مع الشكر والثبات على الحق.

4) حسن عاقبة التقوى والصبر: كما في قول يوسف عليه السلام: {إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ}، مما يبرز أن أهل الصبر والتقوى لهم العاقبة الحسنة.

5) قبح عاقبة الحسد والكبر والحقد: حيث أودى حسد إخوة يوسف بهم إلى الخطيئة والندم، وبيّنت القصة أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله.

6) الإيمان بالدار الآخرة: فقد أظهرت السورة مبدأ الثواب والعقاب، والعاقبة الحتمية لكل إنسان بناءً على أعماله.

7) شرف العلم والدعوة إلى الله: حيث رُفِعَ شأن يوسف عليه السلام بالعلم، وكانت دعوته إلى التوحيد بارزة حتى في أشد لحظات المحنة.

8) أساليب الحكمة في الدعوة: إذ قدم يوسف عليه السلام نموذجًا للداعية الذي يخاطب الناس بالحسنى ويستخدم الحكمة والموعظة الطيبة في نشر الحق.

9) إرادة الله الغالبة: في قوله تعالى: {وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ}، حيث يتجلى أن الله ينفذ إرادته مهما حاول البشر تعطيلها.
10) إثبات نبوة النبي محمد ﷺ: إذ إن رواية النبي ﷺ لهذه القصة بتفاصيلها دون أن يكون حاضرًا لأحداثها، دليل قاطع على أنه وحي من الله.
11) إثبات مصدرية القرآن الإلهية: فالقصة بأسلوبها العجيب ومعانيها العميقة لا يمكن أن تكون إلا وحيًا من عند الله سبحانه وتعالى.

السائلون هم المنتفعون بالآيات

تؤكد الآية أن هذه الدلالات لا يستفيد منها إلا من يسأل ويبحث بصدق، لأن السؤال هو مفتاح المعرفة، كما كان حال الصحابة الذين كانوا يسألون النبي ﷺ عن أمور دينهم بجدّ واهتمام. فمن أراد الهداية، فعليه أن يسأل ويتعلم، وإلا بقي في حيرة وضلال
بهذا، تقدم لنا سورة يوسف نموذجًا متكاملًا للعبرة والإرشاد، وتؤكد أن الهداية لمن يسأل، والنجاة لمن يعمل بما علم.

الحسد وأثره في قصة يوسف عليه السلام

في قصة يوسف عليه السلام نجد مثالًا واضحًا على خطورة الحسد وآثاره المدمرة. فقد بدأ الحسد بين الإخوة عندما رأوا أن يعقوب عليه السلام يحب يوسف وأخاه بنيامين أكثر منهم، ليس لسبب غير عادل، بل لأنهما كانا أكثر برًّا وخلقًا. ومع ذلك، لم يحاولوا تحسين أخلاقهم، بل لجأوا إلى الغيرة والتآمر.

خطورة الحسد عبر التاريخ

الحسد ليس مجرد شعور داخلي، بل هو داء خطير أهلك أقوامًا على مر العصور:
إبليس حسد آدم على المكانة التي منحه الله إياها، فكان سبب طرده من الرحمة.
ابن آدم الأول حسد أخاه حتى وصل إلى قتله.
اليهود حسدوا العرب على بعثة النبي ﷺ فرفضوا الإيمان به.

فهم خاطئ للحسد

المشكلة الكبرى أن الحاسد يريد الميزة التي عند غيره، لكنه لا يرى الجهد الذي بُذل للحصول عليها، ولا يلاحظ عيوبه التي منعته من تحقيقها. فلو كان إخوة يوسف عقلاء، لكانوا سألوا أنفسهم:
لماذا يحب أبونا يوسف أكثر منا؟
الإجابة: لأن أخلاقنا سيئة، بينما هو أكثر أدبًا وبرًّا.
الحل؟ أن نكون مثله، وسننال نفس الحب.
لكن بدلًا من ذلك، اختاروا الخيار الأسوأ: التخلص من يوسف! وهذه هي مأساة الحسد، فهو يعمي صاحبه عن الحقائق ويدفعه إلى الظلم.
الحاسد يعترض على قسمة الله
الحسد في جوهره ليس اعتراضًا على المحسود، بل هو اعتراض على قسمة الله

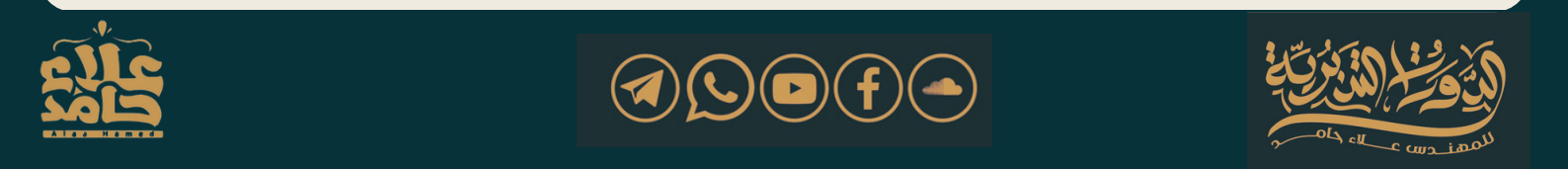

للأرزاق. فالله هو الذي يمنح النعم بحكمته، كما قال تعالى:
{أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ} (الزخرف: ٣٢).
ولذلك، فإن الحاسد لا يهدأ حتى يدرك أن الأمر كله بيد الله، كما حدث مع إخوة يوسف عندما قالوا في النهاية:
{قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ} (يوسف: ٩١).
أخيرًا فهموا أن الله هو الذي اصطفى يوسف، لكن بعد أربعين سنة من العذاب والضياع!
الحسد لا ينتهي حتى بعد زوال المحسود
حتى بعدما غاب يوسف عن إخوته لسنوات، ظل الحسد ينهش قلوبهم. فحينما ذكره أبوهم قالوا له:
{تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ} (يوسف: ٨٥).
حتى الذكرى لم يتحملوها! وهذا دليل على أن الحسد نار تظل مشتعلة حتى بعد زوال المحسود نفسه.
الفرق بين الحب والعدل
إخوة يوسف قالوا: {لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا} (يوسف: ٨).
لكن هل أخطأ يعقوب في ذلك؟
لا، لأن المحبة أمر فطري لا يمكن التحكم فيه. فالعدل مطلوب في العطاء، لكنه غير ممكن في المشاعر، إذ لا يستوي من يقول: {يَٰٓأَبَتِ} بمن يقول: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ}!
الحل: اسأل الله بدلًا من أن تحسد
بدلًا من الحسد، اطلب من الله أن يرزقك مثل ما رزق غيرك. قال تعالى: {وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ} (النساء: ٣٢).
إذا رأيت أحدًا عنده نعمة، فبدلًا من الغيرة، قل:
"يا رب، ارزقني مثلها وبارك له فيها".
"يا رب، اجعلني مجتهدًا مثله".
أي أن
الحسد يعمي الإنسان عن رؤية الحق، ويدفعه إلى الظلم.
الحاسد في الحقيقة يعترض على قسمة الله، وليس على المحسود نفسه.
الحل ليس في تمني زوال النعمة، بل في التقرب إلى الله وطلب الخير منه.
الحب أمر طبيعي لا يلزم العدل فيه، لكن يمكن كسبه بالأخلاق والبر.
فلا تكن من الحاسدين، وكن من السائلين لله من فضله!
العدل في المحبة والتمييز بين الأبناء: دروسٌ من قصة يوسف عليه السلام
إنَّ قصة نبيِّ الله يوسف -عليه السلام- تحمل دروسًا عظيمة في الحسد، والعدل بين

الأبناء، وفهم طبيعة الحب القلبي الذي لا يخضع لميزان المساواة. لقد وقع إخوة يوسف في الحسد بسبب محبة أبيهم الزائدة له ولأخيه بنيامين، لكنهم لم يتفكروا في سبب هذه المحبة، ولم يسعوا إلى تحسين أنفسهم ليحظوا بمثلها، بل لجأوا إلى المكيدة والإيذاء.

الحسد: داءٌ يهلك صاحبه

الحسد من أشد الأمراض القلبية فتكًا، فقد أهلك إبليس حين حسد آدم -عليه السلام-، وأدى إلى أول جريمة قتل في التاريخ عندما حسد أحد أبناء آدم أخاه فقتله، كما كان سببًا في كفر اليهود برسالة النبي ﷺ. الحاسد لا ينظر إلى الأسباب التي جعلت المحسود في مكانةٍ متميزة، ولا إلى عيوبه التي منعته من تحقيق ما وصل إليه غيره، بل يريد الميزة ذاتها دون بذل أي جهد. ولو أن إخوة يوسف تفكروا في سبب محبة أبيهم له، لوجدوا أن ذلك عائدٌ إلى أخلاقه العالية وأدبه الجم، ولكان الحل ببساطة هو الاقتداء به، بدلاً من التفكير في إبعاده عن أبيهم.

العدل بين الأبناء: في العطايا لا في المحبة

إنَّ العدل بين الأبناء واجب، لكنه يكون في العطايا والهبات وليس في المشاعر القلبية، لأن الحب أمرٌ لا يُتحكم فيه. فقد أحبَّ النبي ﷺ عائشة -رضي الله عنها- أكثر من باقي زوجاته، ومع ذلك كان يعدل بينهن في الأمور المادية. لذلك، نهى النبي ﷺ عن تفضيل أحد الأبناء على الآخر في العطايا، لأن ذلك قد يؤدي إلى الغيرة والحسد بينهم، لكنه لم يفرض العدل في الحب القلبي، لأنه خارج عن إرادة الإنسان.

التعامل العادل مع الأبناء: أثر التفاصيل الصغيرة

من المهم أن يحرص الوالدان على توزيع الاهتمام والمودة بين أبنائهم بشكل متوازن، حتى في أبسط الأمور، مثل إلقاء التحية والابتسام والثناء على مظهرهم، لأن الأطفال يلاحظون هذه التفاصيل الدقيقة، وقد تترك أثرًا عميقًا في نفوسهم. تجاهل هذه الجوانب قد يؤدي إلى خلافات مستقبلية بين الأشقاء، حتى بعد وفاة الوالدين.

إخوة يوسف والحسد المستمر

رغم مرور السنوات، ظل الحسد مستقرًا في نفوس إخوة يوسف. فعندما اتُهِمَ بنيامين بالسرقة، قالوا: {إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ}، حتى بعد كل ما حدث، لم يستطيعوا التخلص من شعور الحقد تجاه يوسف. بل حتى عندما أظهر يعقوب -عليه السلام- حزنه عليه بعد سنوات طويلة، اعترضوا على ذلك قائلين: {تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ}، مما يدل على أن نار الحسد لا تنطفئ بسهولة، بل تظل تلتهم قلب الحاسد حتى وإن اختفى المحسود من حياته.

العبرة من القصة

الحب القلبي لا يُشترط فيه العدل، لكن العدل مطلوب في العطايا والهبات حتى لا تنشأ الضغائن بين الأبناء. ولو أدرك الحاسد أن الأرزاق بيد الله، لطلب منه من فضله

بدلًا من الانشغال بحسد الآخرين. إن قصة يوسف -عليه السلام- تعلمنا أن الإصلاح الحقيقي يبدأ من الداخل، وأن الرضا بقضاء الله هو السبيل الوحيد للراحة القلبية والسكينة.

وهم الكثرة.. بين الاعتقاد الخاطئ وتقدير القيم الحقيقية

إن الاعتقاد بأن الأفضلية تُقاس بالكثرة العددية أو الغنى المالي هو خطأ شائع في المجتمعات عبر العصور. فالرجل صاحب الجنتين قال: {أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا }، وكذلك كان تفكير المشركين حين قالوا للمؤمنين: {أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}. هذه النظرة المادية انتقلت إلى واقعنا اليوم، حيث أصبحت المكانة تُقاس بعدد المتابعين

والمشاهدات، لا بالقيم والأخلاق. فهناك من يفرض نفسه فقط لأنه الأكثر شهرة، دون اعتبار لحقيقة محتواه أو تأثيره على المجتمع.

{وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}.. منطق القوة العددية

هذا المنطق ذاته هو ما وقع فيه إخوة يوسف حين قالوا: {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}، أي أننا الأكثر عددًا، فنحن الأحق بالمحبة والمكانة. لكنهم لم يدركوا أن التفوق لا يُقاس بالعدد، بل بالصفات والأخلاق. بل بلغ بهم الأمر أن اتهموا نبيًّا من أنبياء الله بالضلال، قائلين: {إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ}.

معنى "الضلال" في سياق الآية

كلمة "ضلال" في القرآن تأتي بمعنيين:

1) الضلال عن الحق عمدًا، وهو الكفر الذي يعني الإعراض عن الهدى عن علم وإرادة.

2) الضلال عن إدراك الحقيقة، أي أن الشخص لم يتعمد الخطأ، لكنه لم يصل إلى الفهم الصحيح.

وقد اختلف العلماء في تفسير قول إخوة يوسف، فمنهم من رأى أنهم قصدوا المعنى الأول، مما يُعد كفرًا، لكنهم عُذروا بجهلهم. بينما ذهب آخرون إلى أنهم لم يقصدوا اتهام أبيهم بالبعد عن الحق، بل أرادوا القول إنه لم يُدرك حقيقة الأمور، وهو تفسير يخفف من وطأة إساءتهم، لكنه لا ينفي سوء أدبهم البالغ تجاه والدهم النبي.

هل صار إخوة يوسف أنبياء بعد توبتهم؟

هناك من قال إنهم أصبحوا أنبياء بعد ذلك، مستندين إلى ذكرهم في قوله تعالى: {إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ}. لكن الصحيح أن النبوة لم تكن فيهم، بل في نسلهم. والسبب أن الأنبياء لا يمكن أن يكونوا قبل نبوتهم في حال سيئ مليء بالخيانة، والغيرة، والتآمر على القتل، كما كان حال إخوة يوسف. فالأنبياء حتى قبل بعثتهم يكونون من أصلح الناس، كما قال الله عن إبراهيم: {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ}.

العبرة من القصة

المكانة لا تُمنح بالكثرة، ولا يُفرض الاحترام بمجرد الشهرة. ومن أراد محبة الناس، فعليه أن يُصلح نفسه أولًا، بدلًا من التساؤل: "لماذا لا يُحبني فلان؟". فكما قيل: "أحبك كيف وأنت تعاملني بهذه الطريقة؟ أصلح نفسك، وستجدني أقرب إليك". وهذا درسٌ لكل من يظن أن القيم تُستبدل بالأعداد، أو أن الاحترام يُشترى بالشهرة لا بالعمل الصالح والسلوك القويم.

الحسد.. من شرارة الغيرة إلى نيران الجريمة

حين يتملك الحسد القلوب، يعمي البصائر، ويدفع الإنسان إلى أفعال لا تخطر على بال. وهذا ما حدث مع إخوة يوسف، إذ بلغ بهم الحقد مبلغًا عظيمًا، حتى وصلوا إلى اقتراحٍ مرعب: {ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا}. لم يكن الأمر مجرد شعور بالغيرة، بل تحول إلى مخطط للتخلص من أخيهم، غير عابئين بحرمة الدم، ولا بصغر سنّه، ولا بعاطفة أبيهم الشيخ الكبير الذي كان يجد في يوسف راحته وسعادته. وكما قال ابن إسحاق، فقد اجتمع في هذا الفعل من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقسوة القلب، ما لا يُتصوَّر أن يصدر عن أبناء نبيٍّ من أنبياء الله.

لكن العجب ليس في قسوتهم فحسب، بل في منطقهم المقلوب! فقد توهموا أن قتل يوسف سيجعل أبيهم يحبهم، {يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ}، وكأن المحبة تُفرض بالإكراه! كيف يُعقل أن يُنسى يوسف من قلب أبيه، بل كيف لا يثير غيابه الشك فيهم؟ ألم يدركوا أن يعقوب عليه السلام قد يُذبل قلبه الحزن، فلا يبقى في قلبه متسعٌ لأحد؟

بين الحب الحقيقي والأنانية المقنَّعة

هكذا يزين الشيطان للإنسان الباطل، فيوهمه أن الأنانية هي الحب، وأن حب الذات مقدَّم على كل شيء. لكن الحب الحقيقي شيء آخر؛ الحب عطاء، تضحية، خوف على المحبوب، وليس استغلالًا ولا إلحاقًا للأذى به.

نرى هذا المعنى جليًّا في حب يوسف لأخيه الصغير حين قال له مطمئنًا: {إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ} . الحب لا يُحزن، لا يُخيف، لا يُؤذي. على النقيض تمامًا، نجد امرأة العزيز التي ادَّعت حب يوسف، لكنها في الحقيقة لم تكن تحبه، بل كانت تحب شهواتها. وحين رفضها، لم تتردد في إلقائه في السجن ظلمًا: {مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ}، ولم تهتم به بعدها قط! أي حب هذا؟!

الحب لا يكون إلا طاهرًا

وهذا درسٌ لكل فتاةٍ تُخدع بمشاعر زائفة، وتظن أن الشاب الذي يضغط عليها لفعل الحرام يحبها. الحب الحقيقي لا يدفع إلى المعصية، بل يحمي من الوقوع فيها. الشاب الذي يُجرّكِ إلى الخطأ، لا يحبكِ، بل يحب نفسه، يحب امتلاكَكِ، يستغل ضعفكِ. جربي أن تبتعدي عنه، وستجدينه ينقلب إلى وحشٍ يهددكِ، يبتزكِ، وربما يؤذيكِ. الحب الصادق يأتي من الباب، لا من النافذة، ويطلبكِ بالحلال، لا بالخداع والاحتيال.

النهاية الحتمية للحب الأناني

العاقبة دومًا للصدق، والخيبة مصير الأنانية. فالحب الزائف ينتهي بانكسار، وتعاسة،

وندم. من يحب نفسه على حساب الآخرين، سيظل معذبًا بمحبوبه، يطارده الشعور بالنقص، ويكتوي بنار الحرمان، حتى لو نال مراده. وكما رأينا في إخوة يوسف، لم يذوقوا راحةً بعد فعلتهم، بل عاشوا في قلقٍ مستمرٍ، حتى اعترفوا بخطئهم لاحقًا، طالبين المغفرة، بعد أن ذاقوا مرارة البعد والندم.

فليكن ميزان الحب عندك واضحًا: من يحبك لن يؤذيك، ومن يؤذيك لم يحبك قط!

حين يزين الشيطان المعصية بوهم التوبة

ماكرٌ هو الشيطان، يعرف كيف يدخل إلى القلوب، ويجيد إضفاء المسحة البريئة على أعظم الذنوب. لم يكتفِ بتحريض إخوة يوسف على التخلص منه، بل أضاف إلى خطته لمسة خادعة، فقال لهم: {وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ}. أراد أن يطمئن ضمائرهم بأن الذنب مؤقت، وأن التوبة بعده قريبة، فما المشكلة إذن؟!

وهذه الحيلة لم تزل تُستعمل حتى اليوم، حين يهمس الشيطان في أذن العاصي: "افعلها الآن، وتُب غدًا". "سننطلق في رحلة اللهو، ثم نستغفر عند عودتنا!"، "سنخطئ اليوم، لكن مع رمضان سنبدأ من جديد!"، "سنعيش حياتنا في الشباب، ثم نهتدي عند الكِبَر!"... لكن، من يضمن العمر؟! ومن قال إن التوبة تُنال متى شئنا؟!

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ} [الأنفال: 24]،

فقد يغلق الله باب التوبة عمن استهزأ بها، ويسلبه الرغبة في العودة. ولو نظرنا إلى إخوة يوسف، لوجدنا أن شيطانهم قد خدعهم، فلم ينالوا لا محبة أبيهم، ولا صاروا صالحين بعدها مباشرة. بل مضت أربعون سنة وهم على حالهم، كادوا يهلكون على ما هم عليه، لولا أن يوسف عليه السلام سامحهم، فكانت لهم فرصة التوبة. ولكن، هل للجميع مثل هذه الفرصة؟

الخيانة حين تأتي منا أقرب الناس

لا شيء أشد إيلامًا من خيانة القريب. فالغريب إن أضرّك، هان الأمر، أما حين تأتي الطعنة ممن كنت تظنه سندًا، فإنها تنغرس في القلب عميقًا. وهذا ما فعله إخوة يوسف، حين خانوا أخاهم الصغير، ولم يرقّ قلبهم لشيخوخة أبيهم.

فالأخ والأخت، في الأصل، حصنٌ وسند، كما رأينا في أخت موسى عليه السلام التي تعقبته بعينها خوفًا عليه، وهارون الذي خلف موسى في قومه ليصلح بينهم. وحين ينقلب هذا السند إلى عدو، يكون الجرح غائرًا، والألم مضاعفًا.

احتياج الأبناء لأكثر من العطاء المادي

حين قال إخوة يوسف: {يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ}. كانوا يبحثون عن شيءٍ أهم من الهدايا، وأغلى من النفقة، وهو الاهتمام. الأبناء يحتاجون إلى أن يجدوا آباءهم وأمهاتهم قريبين منهم، يتحدثون معهم، يسمعونهم، يشعرون بوجودهم. ليست الهدايا ولا المدارس الفاخرة هي التي تغني عن هذا القرب، بل دفء المشاعر والوقت الذي يُمنح لهم بصدق.

الحب الحقيقي لا يفتر مع الغياب

وأعظم مثال على الحب الحقيقي، هو حب يعقوب ليوسف. أربعون سنة تمرّ، ولا يزال قلبه متعلقًا بابنه، حتى أبيضت عيناه من الحزن، لكنه لم ينسه لحظة. هذا هو الحب الصادق، لا يُمحى بالغياب، ولا يبهت مع الزمن. هو كالصديق الذي تغيب عنه سنين، وحين تلقاه، تجد نفسك تتحدث معه وكأنك لم تفارقه يومًا.

الحب لا تقطعه المسافات، ولا تمحوه الأيام، بل يظل راسخًا، كما ظل حب يعقوب ليوسف رغم مرور العقود.

الدرس الأكبر

لا تنخدع بوهم التوبة المؤجلة، فالعمر ليس ملكًا لك، والخداع الأكبر هو أن تظن أن ذنبك قابل للمحو متى شئت. والتوبة ليست مجرد كلمة تُقال، بل صدقٌ وإخلاص، قد لا يُتاح للجميع فرصة الوصول إليهما. فإن كنت تعلم الحق، فلا تؤجله، وإن كنت تحب، فليكن حبك صادقًا، وإن وثقت، فاختر لمن تعطي ثقتك، فإن أقرب الناس قد يكون أحيانًا أشدهم إيذاءً.

حين تكون الخيارات كلها شرًا

عندما اجتمع إخوة يوسف على التخلص منه، برز بينهم صوتٌ فيه قليلٌ من الخير، هو الأخ الأكبر، أو أكثرهم رفقًا، الذي قال: {لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ}. لم يكن يريد أن يمنع الشر تمامًا، لكنه على الأقل سعى لتخفيفه، فبدلًا من القتل، اقترح النفي. وأحيانًا يجد الإنسان نفسه أمام خيارات كلها مريرة، فيكون عليه أن يختار الأقل ضررًا.

لكن، ما ظنه الإخوة نهايةً ليوسف، كان في الحقيقة بداية رفعته. أرادوا له الجب، فرفعه الله إلى العرش! {يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ}. حين يريد الله أن يصنع عبدًا مميزًا، يقتلعُه من بيئته التي تعيقه، يخرجه من دوائر الحسد والمكر، وينقله إلى أماكن تهيئه لما هو أعظم. كان لا بد ليوسف أن يبتعد عن محيطٍ يملؤه الحقد، ليبدأ رحلة الصقل والتمكين، من بيت العزيز إلى السجن، ومن السجن إلى الحكم والسلطان.

كم مرة ظننت أن ما أصابك هو محنة، ثم اكتشفت بعد حين أنه كان منحة؟ كم مرة أبعدك الله عن شيء تعلّقت به، ثم أدركت لاحقًا أنه كان يحفظك ويرفعك إلى ما هو خير لك؟ فكن على يقين، أن الله يدبر أمرك بحكمة، ولو لم تفهمها الآن.

ريبة الكلمات وزيف النوايا

حين جاء إخوة يوسف إلى أبيهم، كان كذبهم واضحًا بين سطور كلامهم: {يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ}.

المريب يكاد يقول: "خذوني"!

الطيبة المفاجئة مريبة، فهم لم يكونوا بهذه المحبة من قبل.

كثرة التأكيدات تدعو للشك: {وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ}. لام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة، كلها محاولة يائسة لإخفاء ما في قلوبهم.

اللاوعي يفضح النوايا: أول كلمة نطقوا بها {مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا}، كأنهم يعترفون ضمناً بأن هناك سببًا يدعو أباهم لعدم الثقة بهم.
ولأنهم يعلمون أن الأمر يحتاج إلى إقناع طويل، لم يطلبوا يوسف فورًا، بل قالوا {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا}. لم يكن الأمر سهلًا، وكانوا بحاجة إلى وقت لكسر تردد أبيهم، وهذا يدل على شعورهم الداخلي بأن ما يفعلونه خطأ.
لكن رغم تخطيطهم، لم يكن يدور في خلدهم أن الله هو المدبّر الحقيقي، وأن ما ظنوه نصرًا لهم، كان في الحقيقة بداية خسارتهم، وما ظنوه هلاكًا ليوسف، كان أول خطوة في تمكينه.

الدرس الأكبر

لا تخف إن وجدت نفسك في ظلمات {غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ}، فربما هي أول خطوة نحو مجد لم تتخيله. ولا تبتئس إن انتُزِعتَ من مكانٍ أحببته، فقد يكون ذلك هو السبيل لصعودك. وثق دائمًا أن تدبير الله لك خير من تدبيرك لنفسك، وإن لم تدرك ذلك الآن، فسيكشفه لك الزمن.

ميزان الحكمة في الحكم على النصيحة

حين جاء إخوة يوسف إلى أبيهم، كانت كلماتهم مملوءة بالتوكيد والمبالغة: {مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (11) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ}.
لكن يعقوب -عليه السلام- لم ينخدع بهذه الكلمات، بل رد بحزن وحذر: {إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ}.
فهنا قاعدة ذهبية: لا تصدق أي نصيحة إلا بعد عرضها على ميزانين:
1) ميزان الشريعة: إن خالفت الشريعة، فهي ليست نصيحة بل خداعٌ مغلفٌ بعبارات حسنة. فكما أقسم إبليس لآدم {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ}، لم تكن نصيحته إلا غرورًا. كذلك من ينصحك بما يخالف الدين - كالتنازل عن مبادئك لتحقيق مكاسب دنيوية - لا تصدقه، مهما بدت نصيحته عقلانية.
2) ميزان حال الناصح: إن كان معلومًا بالخيانة أو الحسد أو العداء، فكيف تأتمن نصيحته؟ فالنصيحة الحقيقية تأتي من قلبٍ مخلص، لا من لسانٍ مخادع.

اللعب.. حقٌّ لا يتعارض مع الجد

وفي ثنايا القصة، نأخذ لمحة تربوية: حتى أبناء الأنبياء يحبون اللعب! قول إخوة يوسف: {أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ} يدل على أن اللعب كان جزءًا من حياتهم، لكنه لم يكن شغلهم الشاغل. فالتربية الحكيمة تقتضي التوازن، لا إفراط في اللعب حتى يضيع الجد، ولا منعٌ تامٌّ فيتحول الطفل إلى رجل صغير قبل أوانه.
كم من أبٍ يرى مكانته الدينية أو العلمية سببًا لمنع أولاده من اللعب، كأنه يخجل من أن يُرى ابنه يلهو! وكم من أمٍّ تحرم طفلها من طفولته بدعوى الجدية والانضباط! حتى أن البعض يضغط على الصغار ليحملوا عباءة العلماء في سنٍّ مبكرة، فيُدفع الطفل للخطابة والتعليم وهو لم يزل في عمر اللهو والمرح.

دعوا لكل مرحلة حقها، فليس المطلوب أن يكون ابن الشيخ مختلفًا عن بقية الأطفال، بل المطلوب أن يكون إنسانًا سويًّا، يأخذ من كل مرحلة نصيبها المناسب، ليكبر متوازنًا، عالمًا بوقته، متمسكًا بدينه دون أن يُحرَم من طفولته.

ميزان الحكمة في الابتلاء والظن بالله

حين قال يعقوب -عليه السلام- {إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ}، لم يكن يعلم أنه بلّغ أبناءه - دون قصد - الحجة التي سيستخدمونها في خداعه. فقد عادوا إليه بنفس الكلمات: "أكله الذئب". هنا تتجلى لنا حكمة عظيمة: لا تُخبر الناس بنقاط ضعفك، فقد يستغلونها ضدك.

لكن الأعمق من ذلك هو ما يُعرف بـ"البلاء موكّل بالمنطق"، أي أن كلام الإنسان يعكس ظنه بالله، فيعامله الله بناءً على هذا الظن. والدليل على ذلك ما حدث مع النبي ﷺ عندما زار رجلًا مريضًا وقال له: "لا بأس، طهور إن شاء الله". لكن الرجل أجاب: "بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور". فردّ عليه النبي ﷺ: "فليكن إذًا". فكان كما ظنّ، ومات بالحمى!

إذن، الكلمة ليست مجرد صوت يخرج من الفم، بل انعكاس لظن الإنسان بربه. من ظن بالله خيرًا، وجد الخير، ومن ظن سوءًا، وجد السوء.

الفرق بين البلاء والظن وقانون الجذب

1) البلاء موكّل بالمنطق: كلامك أنت يعكس ظنك بالله، والله يعاملك بقدر هذا الظن.

2) التشاؤم: أن تتشاءم بسبب كلام أو أفعال الآخرين، كأن يخبرك أحدهم أن يومك سيكون سيئًا، أو تمر بمكان اسمه "محطة مظلوم" فتعتقد أن يومك سيكون نحسًا، وهذا غير صحيح.

3) قانون الجذب (الباطل): الاعتقاد بأن الكلمات وحدها تجذب الأقدار دون إرادة الله، وهذا ضلال وشرك حديث.

الصبر في وجه الابتلاء

قصة يعقوب -عليه السلام- تحمل في طياتها ألمًا لا يُوصف، فكم كان شديدًا عليه أن يُحرم من ابنه أربعين عامًا! لكن رغم كل هذا، عاد يوسف إليه في النهاية. أما النبي ﷺ، فقد دفن ستة من أبنائه، ودفن زوجتين، ومع ذلك كان صبره أعظم من أن يوصف.

العبرة؟

إذا منعك والدك من شيء، فاعلم أن ذلك من محبته، لا من قسوته.

لا تُطل الغياب عن والديك، فأنت لا تعلم كم يحزنهم فراقك.

كن حذرًا في كلامك، فظنك بالله يُرسم بألفاظك، فلتكن ألفاظك كلها خيرًا.

وهكذا، يظلّ الميزان قائمًا: إن ظننتَ خيرًا، وجدتَ الخير، وإن ظننتَ سوءًا، فالله عند ظن عبده به.

هل ابتُلي يعقوب عليه السلام بمنطقه؟

هناك فرق جوهري بين التوقع الحتمي والتحذير من خطر محتمل.

يعقوب -عليه السلام- لم يقل "سيأكله الذئب", بل قال: {وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ}.
الخوف هنا ليس جزْمًا بوقوع المصيبة، بل تعبير عن الحرص الأبوي والتنبيه من خطر قد يحدث.
لماذا لا تنطبق عليه قاعدة "البلاء موكّل بالمنطق"؟
لأنه لم يصرّح بحدوث الأمر، بل عبّر عن خوفه فقط.
لأن الكيد كان مدبَّرًا قبل أن يتكلم، مما يعني أن ما حدث لم يكن نتيجة لكلامه، بل نتيجة لمكر إخوته.

الفرق واضح: من يقول "سأسقط، سأفشل", فهو يسيء الظن بالله. أما من يقول "أنا قلق من هذا الأمر، فليكن الله معي", فهو يعبّر عن حذره لا عن سوء ظنه.
لكن ما حدث أن أبناءه استغلّوا كلماته، واتخذوها حجة جاهزة لجريمتهم. وهذا درس آخر: لا تُلقّن خصمك الحجة ضدك، ولا تُظهر نقاط ضعفك لمن قد يستغلها.
ختامًا، يعقوب -عليه السلام- لم يُبتلَ بسبب كلامه، لكنه واجه مكيدة استغلت حذره لصياغة كذبة مدبرة. فليكن حديثنا دائمًا موزونًا، لا نعطي لأحد سلاحًا ضدنا، ولا نفتح بابًا لسوء الظن بالله، فهو عند ظن عبده به

سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك